سلطنة دارقمر؛ نظرة تاريخية
منعم سليمان عطرون

وجود شعب القمر في دارقمر مثل وجود الأودية والجبال؛ لا يحدده أحد بزمن معين أما أنهم أتوا من مكان آخر فذلك بندرج ضمن الروايات التسعة حول أصول الشعب، وهي روايات قابلة للدراسة والنقاش. وحالة شعب القمر هنا ليس إستثناء بل مشابهة لحالة مجتمعات تعتبر دارقمر إمتداد لها ثقافيا وأنثروبلوجيا في السودان الغربي منذ تاريخ بعيد؛ وهي مجتمعات التنجر شرقا والتي تعتبر نفسها تكامل لإمتداد مجتمعات البرتي والبرقد إلى الشرق من التنجر؛ ومجتمعات زنجية أخري تعتبر نفسها عربية في المنطقة.

تتشابه هذه المجتمعات في العديد من السمات أبرزها ثقافية؛ النشاط الإقتصادي والإجتماعي؛ وتحدث لغة مشتركة والتي يمكن أن نرجحها إلى مفردات كوشية تغذت بالعربية؛ وكانت هي اللغة.

مصادر تاريخ سلطنة دارقمر.

أما سلطنة دارقمر؛ منشأها وإستمرارها فهناك مصدران لذلك التاريخ.

المصدر الأول الروايات الشفهية التي يحفظها القمر في دارقمر الصعيد؛ والقمر في دارفور؛ وسكان دارقمر أنفسهم.

والمصادر الثاني المدونات مثل كتاب النسبة؛ والنقش ومدونات الرحالة.

فأما المدونات فهي وثائق محفوظة في الديوان السلطاني تمثلها مكاتبات؛ مراسلات؛ وقضايا وأحكام؛ وقرارات سلطانية. كتبت جلها على الجلود وبعضها أعيد طباعتها.

مدونة كتاب النسبي؛ وهي سيرة تمثلها شجر نسب تضم العشائر ال21 المشكلة لشعب القمر؛ وخشوم الوراري ٠٩٩ خشم وراي وتضع عشيرة الميقي؛ التي تتوارث العرش السلطاني في المنتصف. وترجمة كلمة الميقي إلى العربية تعني الوسط.

المنقوشات؛ وهي رسومات علي أواني وأدوات منزلية وزينة، وأسلحة، بعضها نحاسية؛ وذهبية وحديدية، نقشت عليها أسماء سلاطين واسر، وأبناءهم والأبوونقات (جمع أبوو ويعني الأمير عند القمر، الامو تنعي أميرة، ميرمة تعني أميرة أيضا).

ويجدر ذكره أن دارقمر هي أقدم المجتمعات في دارفور الحالية عرفت التدوين باللغة العربية في العهد الإسلامي؛ ومارسته في تعليم القران وتعليم النقا او علم الأسرار؛ وإستخدمته في المحاكم والمكاتبات.

المصادر المكتوبة للتاريخ؛ تمثلها مؤلفات الرحالة والكتاب الأوربيين؛ والكتاب الأفارقة لاحقا؛ وهنا نجد ذكر دارقمر وسلطنتها ضمن التاريخ المقارن للسلطنات والمجتمعات المجاورة لسلطنة دارقمر؛ وهي إمبراطورية التنجر؛ سلطنة دارفور؛ وسلطنة دارواداي؛ وسلطنة داجو سلا وسلطنة دارمساليت؛ وسلطنة دارتاما؛ ومجتمعات دارزغاوة والمجتمعات العربية الرحل والمقيمين.

نشأة سلطنة دارقمر

في كل الشفهية المروية عند شعب القمر؛ وفي المدنة عند الرحالة الأوربيين؛ يذكر أن سلطنة دارقمر تعتبر هي أول سلطنة إسلامية داخل السودان الحالي ما بعد ظهور الإسلام في السودان الغربي، يعني سابقة لسلطنة دارفور ما بعد سلونق سليمان، وسلطنة تقلي وسلطنة دارمساليت.

وتأتي نشأتها في سياق و ضمن سلسلة السلطنات الإسلامية التي نشأت في بلاد السودان عقب ظهور وإنتشار الإسلام بغزوات ورحلات سلاطين سلطنة كانم برنوا الي الشرق. ولكن يصعب تحديد تاريخ معين حول متى وكيف وصل الإسلام إلى السودان الغربي؛ عبر العرب المسلمين؛ أو الأفارقة المسلمين العابرين إلى الحجة شرقا؛ كذالك حول تاريخ غزو سلاطين كانم برنو للسودان بغرض نشر الإسلام.

وما هو مؤكد أن غزو السلطان إدريس علومي أو ألومي (1580-1617) أو (1603-1970) سلطان كانم برنو اراضي غرب السودان (دارفور الحالي) وقضي علي إمبراطورية التنجر؛ ونشر فيها الإسلام وبني المساجد.

وكانت إمبراطورية التنجر في اخر عهدها؛ (عصر الإنتقال الثاني) قد شملت كل الأراضي من (من بحر إلى البحر) أي من غرب النيل؛ والنيل الأبيض إلي بحيرة تشاد شمالا وغربا. واتخذت من تندلتي في كردفان عاصمة ثم كتم عاصمة ثانية.

بوصول الإسلام من الإتجاه الغربي فقد تأسست السلطانات في بلاد السودان تباعا من الغرب إلى الشرق؛ ونذكر؛ سلطنة كانم برنو نفسها في القرن 11، سلطنة باقرمي؛ سلطنة وداي ؛ سلطنة دارقمر؛ سلطنة دارفور؛ ثم سلطنة سنار؛ مملكة العبدلاب؛ وسلطنة تقلي. أو يمكن القول أن بعضها إنتقلت من عهد ما غير إسلامي إلى عهد إسلامي.

ويجب أن نذكر هنا إستثنائين أن سلطنة دارتاما تقع غرب سلطنة دارقمر لكنها تأسست تالية لسلطنة دارقمر. وسلطنة دارمساليت هي أحدث السلطنة داخل بلاد السودان وتاسست عام 1870 وقد أسهمت سلطنة دارقمر في تأسيسها انظر الرويات الشفهية. سلطنة زغاوي كوبي تأسست داخل الأراضي التاريخية لسلطنة دارقمر على يد سلاطين الفور؛ وسلطنة الزغاوي كبقي تأسست داخل الأراضي التاريخية لسلطنة دارقمر علي يد سلاطين القمر.

وفي التاريخ الشفهي المروي لدارقمر؛ والمكتوب أن سلطنة دارقمر تأسست في فترة إنهيار إمبراطورية التنجر؛ والتي على الأرجح أنها حدثت في القرن السابع عشر( 1600). وحين وصول أول سلطان مسلم على سلطنة دارفور لاحقا؛ سلونق سليمان عام 1660 (نختيجال؛ وأوفافاهي) كان دارقمر قد بلغت من العمر نحو 57 سنة. أي أن سلطنة دارقمر سبقت سلطنة دارفور بنحو ست عقود. وان حقبة الإنتقال بين التنجر والفور استمرت لعقود طويلة قبل ان يبسط سلاطين دارفور حكمهم علي أغلب الأراضي التي كانت إمبراطورية التنجر.

ويذكر في التاريخ الشفهي للقمر أن حاكم إمبراطورية التنجر العاشر كان ينتمي لشعب هو الجنرال جرموك؛الذي ينتمي إليه بيت جرموك وهو إحدي عشائر القمر. و كان جرموك أحد جنرالا جيش إمبراطورية التنجر في الجهة الغربية ولم يذكر زمن معين تولا فيها جرموك السلطة في التنجر. ويبدو

أنه في عهد الإنتقال الثاني التي إنتهت إمبراطورية التنجر نشات عدت سلطنات داخلها؛ أو إنتقلت ممالك كانت جزء من الإمبراطورية إلى سلطنات مستقلة. وهنا يذكر التاريخ الشفهي لدارقمر أن الملك حسب الله، كان آخر ملك للقمر في مملكة تتبع للتنجر. وحسب الله من عشيرة لوك في القمر وليس الميقي.

وان قصة حمد واقف مؤسس سلطنة دارقمر في الرواية الشفهية هي قصة أسطورية، أشبه بقصة أحمد المعقور مؤسس سلطنة دارفور او قصة عبدالكريم جامع مؤسس سلطنة وداي.. ويذكر التاريخ الشفهي رواية إنتقال السلطنة إلى عشيرة الميقي؛ وصار يحي أبو عشرة أول سلاطين دارقمر. وان ابن السلطان يحي الكبير طاهر، او الثاني بولاد، وجد حيلة اتي بنحاس السلطنة إلي منزل أبيه.

في التاريخ الشفهي يحسب مجتمعات دارقمر الزمن بالتقويم القمري

دارقمر تراب هني تنجر إول. وكت سلطان فور سلونق سليمان جي أنينا قمير عندنا خمس واداشر سنة" وسنتين". وترجمة ذلك أن دارقمر مملكة في إمبراطورية التنجر.

و الشهور القمرية عند سلطنة دارقمر هي التالية؛ (ضحيتين؛ وحيد؛ كرامة؛ توم ؛ تومين؛ سايق التيمان؛ رجب؛ قصيير؛ رمضان؛ فطر؛ فطرين؛ ضحية). وهي شهور ربما كوشية ومتبع لدي مجتمعات اخري غير القمر.

يقف العدد عند الحساب إلى (11) واداشر. و2 واداشر (22).....الخ خمس واداشر (55 سنة) وسنتين. وللذين لم يذهبوا الي مدارس حديثة فان الحساب الي واداشر سهل ومبسط ومفهوم.

وفي نهاية شهر ضحيتين يحتفل القمر بدخلة السنة، ويشعلون نار باعواد شجر القفل بعد ام تطفي نؤر العام الماضي. ويوضع الدقيق المخبوذ غير المحروق في المرتفعات. ربما هي عادات قبل الاسلام ومعروفة لدي الكثير من المجتمعات الاخري غير القمر.

ويقول التاريخ الشفهي أن القمرلهم 99 بيت وخشم وراي. وأن جدهم وضع عهد أن تحكم أي بيت بكامل خشم وراريه 99 سنة؛ وحين يحكم بيت أولماك وهو أصغر بيت في القمر يضم 6 خشوم وراري؛ سيأتي القيامة. لكن ميقي؛ شالوا سلطنة مرة واحد.

ويذكر تاريخ تأسيس سلطنة دارفور برواية أوفاهي 1660 وهو العام الذي وصل فيه سلونق سلمان للسلطنة في طرة. حتى ذلك التاريخ كانت سلطنة دارقمر قد مر عليها أكثر من نصف قرن.

بهذه يمكن تقدير تاريخ تأسيس سلطنة دارقمر 1603؛ ( وهو العام الذي يذكر مقتل السلطان إدريس ألومي في داراقرمي).

وفي مؤلف جوستاف نختيجال سنة 1874 يذكر قدم سلطنة دارقمر مقارنة بالقبائل الأخري؛ وأن سلطنة دارقمر كانت تتبع لها؛ بجانب القمر؛ قبائل التاما؛ الزغاوة؛ والأرنقا والأسنقور. ونعرض هنا نص نختيجال ويجدر هنا إراد نص الرحالة جوستاف نختيجال؛ مؤلف أشهر كتب الرحلات الأوربية في إفريقيا "الصحراء وبلاد السودان":

وفي اقصى الغرب ، في دار مادي ، وفي الشمال الغربي من دار تكنياوي ، كما في الشمال ، نجد " أجناس التامة وسكان جبل مول وبقايا القمر وذوي قرباهم الذين ذكرنا ينتمون فيما يبدو الى اسرة اقوام كبرى . ويجي ان نخص منهم القمر الذين لهم كما اسلفنا منطقة نفوذ واسعة بين اقليم التامة والزغاوة ، مركزها نقط ، وبسطوا من هناك حكمهم على التامة والزغاوة . وكانت لهم في الماضي قوة معتبرة . ومازالت تلك الاهمية التاريخية تؤخذ في الاعتبار حتى الان ، اذ ان سلطان القمر هو اكثر شخصية محترمة في دارفور بعد الملك . وقد بسط له قبل وصولي بزمن غير بعيد بساط بجانب بساط الملك ، بينما لا يسمح للأمراء الا بالجلوس على الارض الجرداء امام السلطان . وكان آخر سلطان للقمر يسمى ابوبكر . ولايعيش القمر في شمال وغرب دارفور فحسب ، بل ينتشرون في مديرية ابو اما الجنوبية . ولغتهم الآن واحدة ذات وشائج وثيقة بلغة التامة والاسنقور . وحتى الفور يعترفون بأن القمر قوم ذوو أصل عربي . ولايمكن الان تمييزهم عن الاسنقور والتامة الا بجهد ، فهم سود وليس في تقاطيعهم مايدل على اصلهم المميز"

جوستاف نختيجال؛ ص 59؛ سلطنة دارفور أقاليمها وأهلها وتاريخيه؛ الجزء من كتاب الصحراء وبلاد السودان.